

إهداء 2005

أ.د. / محمد عثمان نجاتي

القاهرة

أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٢]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور محمد عمارة

إسلامية المعرفة ماذا نعني؟



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة
ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ،
هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ،
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب
العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم
هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب
من الحياة العقلية التى نعيشها .
طه حسين

١ - المرحلة اللاهوتية.. وهى مرحلة الحكم الدينى .. التقليدية ،
التي اتسقت فيها السلطة بين قوة الملوك الدنيوية وقوة الكهنة
الروحانية ..

٢ - والمرحلة الميتافيزيقية .. التي حدث فيها نوع من الفوضى ،
تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم ..

٣ - والمرحلة الوضعية .. التي يكون فيها رجال العلم التجريبي قوة
روحية جديدة.. وتسود فيها المعرفة الوضعية .. ويصبح الدين وضعيا
أيضا!.. وتصبح كل العلوم، حتى الإنسانية منها، طبيعية، فى
مناهجها، وفى درجة الحياد والموضوعية والتعميم لقوانينها ومقولاتها-
حتى لقد أطلق على علم الاجتماع -الذى أسسه-: «الفيزيقا
الاجتماعية»^(١).. وقال، فيما قال: «إننا مادما نفكر بشكل وضعى فى
مادة علم الفلك أو الفزياء ، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة فى
مادة السياسة أو الدين ، فالمنهج الوضعى الذى نجح فى علوم الطبيعة
يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير »^(٢) ..

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف ، وكافة العلوم
صادرة عن مصدر واحد للمعرفة ، هو « الواقع المحسوس » .. فكل
المعارف « تجريبية » ، ومن ثم يمكن التعبير عنها « بلغة الفيزيقا »^(٣) ..

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) محمد أمزيان [منهج البحث الاجتماعى بين الوضعية والمعيارية] ص ٤٦ ،

٤٧ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى سنة ١٩٩٢ م.

(٣) [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ص ٤١٧ .

هكذا بدأت وتبلورت « الوضعية » الغربية - بمدارسها المختلفة -
وانقساماتها التي تمايزت فى الفروع والتفاصيل والتخصصات :
الوضعية .. والوضعية المنطقية .. والتجريبية .. والسلوكية .. والمادية -
بمذاهبها وفروعها .. إلخ .. إلخ ..

فكما جرّم اللاهوت الكنسى الغربى « المعرفة الواقعية » لجاليليو
[١٥٦٤ - ١٦٤٢م] .. جرّمت الوضعية الغربية « المعرفة الإيمانية » ،
معتبرة إياها : إفرازا بشريا طفوليا ، تجاوزه العقل البشرى عندما
تجاوزت الإنسانية مرحلة طفولتها ..

وهكذا عاد الخلل إلى مصادر المعرفة ، وإلى أدواتها ، عندما قامت
على ساق واحدة ، هي «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها الأخرى ،
« كتاب الوحي » .. عاد إليها هذا الخلل القديم ، من جديد .

لقد غدت الوضعية : « دين الفكر الغربى » ، الذى استبدل « بدين
الايمان السماوى » .. ثم اتخذت الأشكال المتعددة فى الميادين المختلفة ..

● فهى قد جعلت « الوعى » نشاطا ماديا ، هو انعكاس
« للدماغ » ، الذى حسبته « العقل » .. أى أنها قد جعلت « العقل »
و « التعقل » مادة .. حتى لا يكون هناك شىء فى الإدراك والمعرفة غير
الحس والمحسوس والحواس .. وقال هكسلى توماس . هـ [١٨٢٥م
- ١٨٩٥م] : « يبدو أن الوعى متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية
لعمل الجسم ، لا أكثر ، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعديل عمل
الجسم ، مثلما يلزم صفير البخار حركة القاطرة دونما تأثير على
آليتها .. » .. وقال أيضا ، فى سياق الادّعاء بهذه «المادية الميكانيكية» :

« إن الأفكار التى أعبر عنها بالنطق . وأفكارك فيما يتعلق بها إنما هى عبارة عن تغيرات جزئية .. »^(١) ..

ولقد قادت هذه «المعرفة الحسية» ، التى أنكرت « مادون المحسوس والحواس » ، قادت أصحابها إلى « دهرية جديدة » فى الاعتقاد ! ..
فالدهريون الأول قد قالوا : ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾^(٢) .. ورأوا فى الموت نهاية كل شئ ، يستوى فى ذلك « الجسم » و«العقل» و«النفس» و«الروح» و«الفكر» و«الإرادة» .. فالناس – كما قالوا – هم مثل الزرع ! .. نراه مختلفا ألوانه ، ثم يصير حطاما ، لا عودة له ، ولا بعث ولا نشور ! .. لأنه – كما قال هؤلاء الماديون – : « إذا كان التفكير والإرادة نشاطين من أنشطة الدماغ ، فسيفنيان بفناء الدماغ . وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة ، فلا بد من أن يكون كل جزء منه عرضة للفناء .. »^(٣) ..

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية للعلم الغربى ، انطلق داروين (تشارلز ١٨٠٩م – ١٨٨٢م) ففسر – فى الدارونية – نشأة الحياة تفسيرا ماديا – أو إلى هذه النتيجة قادت أبحاثه فريقا من تابعيه – فهى – الحياة – قد نشأت ذاتية بواسطة التفاعلات والتغيرات الجزئية التى اعترت المواد الأولى التى تخلقت منها – تماما كما تخلق الوعى ونشأ من مادة الدماغ ،

(١) روبرت م. أغروس ، جورج ن ، ستانسيو [العلم فى منظوره الجديد] ص ٢٦ ، ٢٥ ترجمة كمال خلايلى . طبعة الكويت . عالم المعرفة سنة ١٩٨٩م .
(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .
(٣) (العلم فى منظوره الجديد) ص ٢٥ .

بالتغيرات الجزئية.. فما قاله هكسلى فى عالم الأفكار، قاله دارون فى عالم الأحياء

وتطبيقا لهذه النزعة المادية – فى عالمى الأفكار والأحياء – فى الاجتماع والأموال والثروات والاقتصاد قال ماركس (كارل) (١٨١٧م – ١٨٨٣م) «إن تطور المجتمعات والاجتماع البشرى إنما هو بتأثير المحرك الأول: الواقع المادى.. والاقتصاد – قوى الانتاج، وعلاقات الإنتاج.. فالمعرفة مادية، تعكس «الواقع» فى «الفكر»، وهى قائمة على الممارسة، تبدأ بالإدراكات الحسية للأشياء»^(١).. ولا شىء غير «الواقع» المنعكس فى «فكر» الإنسان، بواسطة «مادة الدماغ».. أما «الله» و«الدين» – وكل ما جاء به «كتاب الوحي»، فهو خيال وخرافة اخترعها المحرومون، تسلية لأنفسهم، أو الخبثاء الأغنياء تخديرا للفقراء».

ولقد تصاعدت الماركسية بهذه «الدهرية» المنكرة «لمصدر الوحي» والمعادية للدين، من مستوى «الخيار – الفردى» إلى حيث جعلتها «مهمة ثورية» دعت «الثوار» إلى النضال لتعميمها على الإنسانية ومجتمعاتها، باقتلاع الدين والتدين اقتلاعا من هذه المجتمعات، جاعلة من هذه «المهمة» جزءا لا يتجزأ من «تحريرها» الإنسان من «القيود».

لقد تنوعت مدارس الفكر الغربى ومذاهبه، وتعددت فى إطار نهضته الحديثة العلوم والمعارف والتخصصات.. لكن الوضعية.. والنزعة المادية.. والمذهب الحسى فى المعرفة.. كانت القاسم المشترك الأعظم فى معظم هذه

(١) (الموسوعة الفلسفية) – مادة المعرفة – وضع لجنة من العلماء السوفيت –

ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٤م.

المدارس والمذاهب والمعارف والتخصصات.. حتى لقد انطبع فكر النهضة الغربية الحديثة بهذا الطابع «الدهرى.. الحسى» إلى حد كبير..

ولقد تزامن ذلك مع تراجع حضارتنا الإسلامية.. ومع الموجة الاستعمارية الغربية الحديثة، التى حملت إلى بلادنا الإسلامية – بعد خضوعها لهيمنة هذه الموجة الاستعمارية – مع النهب الاقتصادى.. والإلحاق الأمنى والسياسى.. نزعتها هذه فى المعرفة الحسية، والتوجه المادى.. فأعاد تاريخ المواجهات الفكرية سيرته الأولى من جديد.. مع تغير فى مواقع الفرقاء.. فبعد الفتوحات الإسلامية نهض الإسلاميون بمواجهة مذهب المعرفة الحسية – الواقف عند المحسوس والحواس – نهضوا بمواجهته بمذهب الإسلام فى المعرفة، فى البلاد التى فتحها المسلمون.. لقد قدموا «البديل الإسلامى» فى المعرفة، كجزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى انتصر، وغدا – لأكثر من عشرة قرون – منارة العالمين..

واليوم. وبعد الغزو الغربى لوطن العروبة وعالم الإسلام، منذ نحو قرنين من الزمان، اقتحم الفكر الغربى على العقل المسلم دياره ومعاقله، محاولاً أن يفرض عليه – ضمن ما يريد فرضه – نموذجه الحضارى الغربى، المؤسس على النزعة المادية والحسية فى المعرفة.. الأمر الذى يجعل من شعار «إسلامية المعرفة» التعبير عن مهمة ثقافية ورسالة فكرية، هى المدخل والسبيل والأداة لبلورة الطور المعاصر لمشروعنا الحضارى الإسلامى، الذى لابد لنا من إحيائه وتجديده، لنواجه به المشروع الغربى..

فالقضية الآن أكبر من مهمة ثقافية.. وأخطر من رسالة فكرية.. وأعظم من «هم أكاديمي».. إنها جزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى يمثل بالنسبة ليقظتنا الإسلامية الحديثة.. دليل العمل الذى ينير لهذه اليقظة الطريق.. والرائد الذى لا يكذب أهل هذه اليقظة.. وطوق النجاة لأمتنا من هاوية التبعية الفكرية والاستلاب الحضارى، الذى أقام له «الآخر الحضارى» فى عقر دارنا المؤسسات التى تبث مذهبها فى المعرفة ومناهجه فى صياغة الواقع وتشكيل الحياة..

تلك هى المهمة التى يطرحها شعار «إسلامية المعرفة» على العقل المسلم، فى المنعطف التاريخى، والظرف الحضارى الذى نعيش فيه..



الفصل السابع

وفسمة فى مشروعنا الحضارى البديل

ولعل مما يزيد العقل الإسلامى ثقة فى خطر هذه القضية – قضية : إسلامية المعرفة – واطمئنانا إلى توافر إمكانات النجاح فيها – غير القياس على انتصار أسلافنا العظام على الوضعية القديمة والدهرية القديمة – لمن كثيرا من دوائر الفكر الغربى ذاته قد أخذت تفيق من خدر الاطمئنان الذى خدعتها به موجة المعرفة الحسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين..

لقد شهد العلم الغربى ، منذ العقود الأولى للقرن العشرين ، العديد من الاكتشافات العلمية ، التى يعدها المؤرخون له بمثابة «الثورات» التى كشفت عورات افتقار المعرفة الحسية والمادية إلى التوازن ، ومن ثم افتقادها لمقومات «الصدق المعرفى».

● فى الفيزياء ، مثلت أبحاث ونظريات ومكتشفات أينشتاين Einstein (١٨٧٩م – ١٩٥٥م) ، وبور Bohr (١٨٨٥م – ١٩٦٢م) ، وهايزنبرج Heisenberg (١٩٠١م – ١٩٧٦م) ثورة كبرى..

● وفى مبحث الأعصاب ، مثلت أبحاث ومكتشفات شرنجتون Sherrington (١٨٥٧م – ١٩٥٢م) .. وإكلس Eccles من مواليد ١٩٠٣ .. وسبرى Sperry (١٨٦٠م – ١٩٣٠م) .. وبنفيلد Penfield ثورة جديدة..

● وفى علم النفس ، مثلت أبحاث ومكتشفات فرانكل Frankl .. وماسلو Maslow وماى May ثورة أخرى..

● وفى علم الكونيات. كانت نظرية «الانفجار العظيم»، و«المبدأ الإنسانى»، فتحا علميا جديدا. مثل مع الثورات العلمية فى الفيزياء والأعصاب.. وعلم النفس الأسس الجديدة لمعرفة غير حسية – وبمعنى أدق لاتقف على «ساق الحس» وحدها.. وبعبارة أهل الاختصاص من علماء الفيزياء، الذين يحللون مغزى هذه الثورات العلمية، ويؤرخون لها: (فإن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث – الذى كان سائدا فى العلم الغربى – للإنسان ولمكانته فى العالم فحسب، بل هى تقدم تفسيراً جديداً..).

لقد كان التصور السائد فى دوائر العلم الغربى. إبان حقبة الموجة المادية والحسية فى المعرفة، هو «أن لا وجود إلا للمادة، وأن الأشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب، وهكذا يتحتم أن تكون حرية الاختيار وهما من الأوهام ما دامت المادة غير قادرة على التصرف الحر. ولما كانت المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أى شىء، فلا سبيل إلى العثور على حكمة وراء الأشياء الطبيعية – (عالم الغيب) – بل إن العقل ذاته يعتبر نتاجا ثانويا لنشاط الدماغ..

ولقد وصف برتراند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢م – ١٩٧٠م) هذا التصور المادى الذى ساد دوائر المعرفة والعلم الغربى فقال: «لأن يكون الإنسان نتاج أسباب لاتملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات، ولأن يكون منشؤه ونموه ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجرد حصيلة إرتصاف ذات عرضى، ولأن تعجز أى حماسة مشبوية أو بطولة، أو أى جدية فى التفكير أو الشعور، عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر، ولأن

يكون الاندثار هو المصير المحنوم لكل عناء الأجيال . ولكل التفانى . ولكل عبقرية الإنسان المناألقة تألق الشمس فى رابعة النهار . كل هذه الأمور إن لم تكن حقا غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أى فلسفة ترفضه أن يكتب لها البقاء . وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بأمان إلا فى إطار هذه الحقائق وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم ..» ..

نعم .. لقد سادت «دهرية القنوط المقيم!» مما وراء المادة .. فى حقبة النهضة الحديثة للمعرفة الغربية – الحسية – والعلم الغربى – المادى – الذى عمم هذه النظرة على جميع العلوم ، المادية منها والإنسانية .. لكن المؤرخين الجدد . للعلم الغربى ، الذين رصدوا الثورات المعاصرة فى هذا العلم . يقولون إن ذلك التصور «الدهرى – القانط» قد طويت صفحته بهذه الثورات العلمية المعاصرة وبمعطياتها فى نظرية المعرفة .. وبعبارة عالم الفيزياء هنرى مارجينو Henry Margenau . إن العقيدة الأساسية للمذهب المادى – وهى أن الحقيقة كلها تكمن فى المادة وهذا رأى كان مقبولا بعض القبول فى أواخر القرن الماضى (التاسع عشر) غير أن أمورا كثيرة حدثت فى هذه الأثناء تكذب هذا الرأى ..» ..

وبعبارة عالم الفيزياء فيرنر هايزنبرج : «إن الفيزياء الذرية المعاصرة قد نأت بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى فى القرن التاسع عشر» . إذن .. فنحن أمام جديد .. وبإزاء تحولات فى مذهب المعرفة الغربية .. تحولات عن النزعة المادية البحتة والحسية الصرفة ..

لقد قال الإمام الغزالى قديما : «طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله» .. لقد بدأ جراح الأعصاب «ويلدر بنفيلد» تجاربه على الدماغ ،

بهدف إثبات النظرة التي كانت سائدة - النظرة المادية - «الدماغ يفسر العقل» - لكنه وصل عبر دراسة ما يربو على ألف حالة - إلى إثبات عكس هذه النظرة المادية.. وصل إلى أن العقل غير الدماغ.. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف، والقدرة على الحركة. لكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.. والعقل، لا الدماغ، هو الذى يراقب ويوجه فى آن معا.. هو الذى يتخذ القرارات وينفذها، مستعينا بمختلف آليات الدماغ»..

لقد وصل بنفيلد إلى هذه الحقائق.. ورتب عليها معطياتها فى نظرية المعرفة.. فكتب فى كتابه (لغز العقل) ..

«إنه أقرب إلى المنطق أن نقول: إن العقل ربما كان جوهرًا متميزًا ومختلفًا عن الجسم».

وأمام هذا الذى قاله .. نتذكر تعريف الإسلاميين للعقل، بكلمات الشريف الجرجاني (٤٧٠هـ - ٨١٦هـ / ١٣٤٠م - ١٤١٣م): «هو جوهر مجرد عن المادة فى ذاته، مقارن لها فى فعله.. جوهر روحانى خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان.. نور فى القلب يعرف الحق والباطل».

ونتذكر، أيضا، تعريفه لـ«القلب»، الذى يعقل ويفقه - كما جاء فى القرآن الكريم - والذى يقول عنه: إنه «لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسمانى الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر، تعلق. وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان.. ويسمىها الحكيم: النفس الناطقة.. وهى المدرك والعالم من الإنسان، والمخاطب والمطالب والمعاتب».

إنه التعريف الإسلامى، الذى لم ير الإنسان مجرد مادة تفرز الفكر بالتفاعلات لجزئيات هذه المادة..

ومن هذا المعنى يقترب العلم الغربى المعاصر، بتجارب علمائه على الأعصاب.

بل لقد خطا ويلدر بنفيلد خطوة أخرى، هامة، عندما قال - متعجبا - وهو الذى بدأ أبحاثه بهدف دعم النظرة المادية والحسية للمعرفة - قال . « . . . فياله من أمر مثير، إذن، أن نكتشف أن العالم يستطيع، بدوره، أن يؤمن عن حق بوجود الروح.. و إذا كان العقل والإرادة غير ماديين. فلاشك أن هاتين الملكتين - على حد تعبير «أكلس» .. «لاتخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما..»^(١) . . . الله أكبر . . .

إننا بإزاء إيمان «بالروح» .. وإيمان بخلودها.. وإيمان بأن تحلل الجسم وفناء المادة ليس نهاية المطاف.. وهنا تضاهى هذه «التجريبية الجديدة» - إن جاز التعبير - «التجريبية الإسلامية» المؤمنة، فيما انتهت إليه من معطيات.. لكن يبقى «البديل الإسلامى» متميزا.. فهو لا ينطلق، فى المعرفة، فقط من «الواقع.. والحس.. والتجريب»، وإنما ينطلق، أيضا، من «كتاب الوحي» وهو ما يفتقده ويفتقر إليه هؤلاء «التجريبيون الجدد الغربيون» .

لقد اكتشف بنفيلد «أمرا مثيرا»! .. أما العالم المسلم، الذى ينطلق من «كتاب الوحي» و «كتاب الكون»، فإنه يكتشف، بالتجربة، فى «كتاب الكون»: الأسرار التى أودعها صاحب «الوحي» و«خالق

(١) العلم فى منظوره الجديد ص ٣٩، ٤٢، ٤٣.

الوجود» .. فهو ينطلق من الإيمان الدينى.. ينطلق من «الشرعى» ، لاكتشاف «المدنى – الكونى» . ثم يوظف ثمرات العلم «المدنى – الكونى» فى دعم الإيمان «الدينى – الشرعى» . ويكون لذلك أكثر خلق الله خشية لله.. ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(١) .

فالتطور الذى يحدث فى العلم الغربى المعاصر.. ومعطياته فى نظرية المعرفة.. هو مما يدعم ثقتنا فى «البديل الإسلامى» .. ويزيد من إلحاح هذه القضية على العقل المسلم.. لتنقية علومنا من آثار الموجه المادية للعلم الغربى الحديث.. ولصياغة هذه العلوم وفق منهاج إسلامية المعرفة.. وللإسهام، بعد ذلك فى تزكية وترشيد هذا التوجه الجديد والوليد عند الغربيين..



إن الإسلام الذى صاغ أمته، عندما صبغ حضارتها بصبغة الله – بإقامته العلاقة بين «الشرعى» و «المدنى» فى المعارف والعلوم.. إن هذا الإسلام، الذى صاغ الأمة.. ومنهجها فى المعرفة، هذه الصياغة الإيمانية المتميزة.. هو الذى صاغ – تبعاً لذلك، وبسبب ذلك – علماء هذه الأمة صياغة متميزة كذلك.

«تجريبيون – مؤمنون».. و «روحانيون – ماديون»! .. فنجت حياتنا الفكرية والعلمية من ذلك «الفصام النكد» بين «النظر و «التجريب» بين «العمل الذهنى» و«العمل اليدوى».. بين «الشرعى» و«المدنى»..

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ .

فالدين : وضع إلهى .. يسوق الإنسان لعبادة الله ولعمران الكون. مستعينا فى ذلك كله بكتابى «الوحى» و«الوجود» .
ومن هنا :

● كان أبو الوليد بن رشد (٥٢٠هـ - ٥٩٥هـ / ١٢٢٦م - ١١٩٨م) يفرع الناس إلى فتواه فى الفقه كما يفرعون إلى فتواه فى الطب!.. فهو الطبيب المجرب.. والفقيه الأصولى المتكلم.. الحكيم!.. إنه صاحب (كتاب الكليات) - فى الطب - و (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) - فى الفقه - و (مناهج الأدلة فى عقائد الملة) و (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) - فى علم الكلام والتوحيد.

● وكان ابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ / ٩٨٠م - ١٠٣٧م) «الشيخ الرئيس» فى «الشرعى» و«المدنى» .. فى «الإلهيات» و «الطبيعيات».. فى «التصوف» و«النبات والحيوان» و «الهيئة»! فمن آثاره فى الطب (القانون).. وفى الحكمة والإلهيات (الشفاء) و(المعاد) و (أسرار الحكمة المشرقية).. وفى التجريب والطبيعة : (النبات والحيوان) و (الهيئة) و (أسباب الرعد والبرق).. إلخ.

● وكان البغدادى أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) - وهو الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين - المبرز فى الحساب.. وفى الهندسة!.. حتى لقد قالوا: إنه كان يُدرّس فى سبعة عشر فنا!.. ومن آثاره: (أصول الدين) و (وتفسير

القرآن) و (معيّار النظر) و (التكملة في الحساب) و (رسالة في الهندسة) .. إلخ.

● وكان الخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم (٥١٥هـ / ١١٢١م) اللغوى .. الشاعر .. والفيلسوف .. المؤرخ .. والرياضى .. الفقيه .. والمهندس .. الفلكى ! .. ولقد بقيت لنا من آثاره (مقالة في الجبر والمقابلة) و (شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس) و (الاحتىال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما) و (الرباعيات) و (الخلق والتكليف) .. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، ومعرفة علمائها.

● وكان الفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤هـ - ٦٠٦هـ / ١١٥٠ - ١٢١٠م) الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعا .. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: العقول .. والمنقول .. وعلوم الأوائل» .. ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: «مفاتيح الغيب» - فى تفسير القرآن الكريم و «معالم أصول الدين»، و «لوامع البينات فى شرح أسماء الله ائحسنى والصفات» و «الخلق والبعث» فى التوحيد وأصول الدين، و «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» و «نهاية العقول» و «البيان والبرهان» - فى الفلسفة - و «المباحث المشرقية» - فى التصوف - و «السر المكتوم» - فى الفلك - و «النبوات» - فى النبوة والرسالة - و «النفس» - فى

علم النفس - كما أبدع فى الهندسة «كتاب الهندسة» و «كتاب مصادرات إقليدس».. إلخ.

هكذا تجسّد توازن وتكامل مصادر المعرفة، فى المنهج الإسلامى، وتوازن تكامل أدوات وسبل تحصيلها، فى هذا المنهج.. هكذا تجسّد فى العلم الإسلامى، وفى العقل الإسلامى، وفى تراث علماء الإسلام.. فكان الاشتغال بجميع العلوم، «الشرعى» منها و «المدنى»، و «النظرى» منها و «التجريبى»، عبادة وقربة إلى الله، وأمثالا لأوامره وتكليفاته.. فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الإلهية فى العمران البشرى، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذى استخلفهم خالقهم لإقامته فى هذا الوجود.. وفيهما معا، وبهما جميعا يكتشفون آيات الله، سبحانه وتعالى، فى الأنفس والآفاق.. فيظل العلم، بهذا المنهج فى المعرفة، الباب المفتوح دائما وأبدا لاكتشاف الحقيقة فى عالم الشهادة، ودعم قواعد الإيمان بالله وعالم الغيب!.. وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١).

وإذا كانت هذه هى سمات وثمرات التكامل فى منهج «إسلامية المعرفة».. وفى المعارف والعلوم التى أثمرها هذا المنهج.. وفى العلماء الذين التزموه فى إدراك وتحصيل هذه المعارف والعلوم.. فلقد كان طبيعيا أن تكون الصورة سلبية وشائهة على جبهة الحضارة التى اختل فيها ميزان هذا المنهج.

(١) سورة فصلت. الآية ٥٣.

ومن منا لا يدرك ذلك دون كثير عناء إذا هو قارن بين هذا التكامل الذى أشرنا إليه على الجبهة الإسلامية، وبين واقع النهضة العلمية الغربية، ذات المنهج الحسى والمادى فى المعرفة.

● لقد كان التقدم العلمى، فى علوم الدنيا، نقضا وإنكارا للوحى والدين.. حتى لقد قادت الاكتشافات العلمية هناك أصحابها إلى «تأليه الإنسان».. فصاح بعضهم تلك الصيحة المنكرة – المعبرة عن هذا الخلل – فقال: لقد مات الله – تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا! –.

● وكان الكثير من ثمرات هذا المنهج المختل – القائم على ساق المعرفة الحسية وحدها – وخاصة فى العلوم الإجتماعية والإنسانية – ثمرات معتلة.. ففى الوقت الذى زعموا لها حياد ودقة وموضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية، رأينا اكتساح التطور لها كما تكتسح الصحة والعافية العلل والأمراض!.. لقد أثمر هذا المنهج الأعوج مذاهب وفلسفات ونظريات، كانت أقرب إلى «الأمراض الفكرية» وإلى «الفجر – الكاذب»، الذى سرعان ما يتوارى، حتى وإن بهر بعض الأبصار.

وأثمر ألوانا أخرى من المذاهب والفلسفات، كانت تعبيرا خاصا عن أمراض أو ملابسات غربية خاصة.. ومع ذلك، فلقد زعموا لها «العلمية» و «الموضوعية» و «الحيادية».. فذهبوا يفرضونها على البشرية جمعاء.

وبسبب من الطابع المادى والحسى لمنهج المعرفة فى هذه النهضة الغربية الحديثة، فلقد تصور الغرب أن هيمنته على الشعوب المستضعفة، وتدميره للبنية الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمعاتها، ومسحه ونسخه

وتشويهه لموروثها ومعرفتها. ظن ذلك لها «رسالة حضارية» بدفع الرجل الأبيض ضريبة نشرها في العالمين.

وبسبب من هذا الطابع الحسى والمادى، أيضا، كانت التطبيقات الغربية لثمرات عبقريته فى العلم الطبيعى.. كانت تطبيقاتها فى دمار البيئة وتلويثها والاخلال بتوازنها.. وكما عد قهره للأمم الأخرى «رسالة حضارية».. فلقد اعتبر العدوان على الطبيعة «رسالة حضارية» أخرى! جعل من عبارات: «قهر الطبيعة» و«السيطرة عليها» و«تسخيرها للإنسان» عناوين عليها.

ولأن هذا المنهج الحسى والمادى، لا يعترف بغير الواقع المحسوس. ولا يؤمن بغير عالم الشهادة فلقد أثمر «الدهرية» التى لا ترى للحياة الإنسانية مقاصد غير «الوفرة المادية» التى تحقق للإنسان لذاته وشهواته، التى لا تتناهى عند حدود!.. وبواسطة القسوة العنيفة. والصراع الذى لا يعرف القيود..

لقد أثمر هذا المنهج فى المعرفة الغربية علوما ومعارف ومذاهب تحقق للإنسان «قوة المفترس» الذى يأكل فى سبعة أمعاء بينما عجزت عن تحقيق الإشباع الروحى لهذا الإنسان، فاختل توازنه عندما لبت له حاجات الجسد، دون حاجات الروح.. حتى لقد أدى هذا الخلل إلى تهديد الجسد ذاته بالدمار، لغياب دور الروح فى ترشيد الإشباع المادى لجسد هذا الإنسان.



إن ما أشرنا إليه من تحولات جديدة فى فلسفة العلم الغربى المعاصر.. تحولات عن حسية المعرفة وماديتها.. هى حوافز لمزيد من ثقتنا بمنهجنا

الإسلامى المتميز فى المعرفة.. لابد وأن تدفعنا إلى مزيد من الجهد. لبلورة المنهج – منهج إسلامية المعرفة – وصياغة علومنا الإنسانية وفلسفة علومنا الطبيعية وفقا له.

وإن ما نشهده من سقوط وتراجع الكثير من مذاهب الغرب ونظرياته، التى بهرت الأبصار لعقود عديدة من الزمن.. سقوطها وتراجعها، كحال الفجر الكاذب، وكشأن الأمراض التى تكتسحها الصحة والعافية.. لهو حافز آخر لمزيد من الجهد الذى يجب أن يبذل فى هذا الميدان.. وإلا فَمَنْ ذا الذى لا يكتشف فى سقوط وتراجع «الماركسية» ، و«الداروينية» ، و«الوجودية» ، و«الفرويدية» ، والكثير من مذاهب ومناهج البحث والنقد فى الفنون والآداب.. من ذا الذى لا يكتشف فى ذلك ووراءه خلل حقيقى وأكيد فى المنهج المادى والحسى للمعرفة التى أثمرت هذه المذاهب والنظريات؟!.. ويرى فى هذا تأكيدا وإلحاحا على ضرورة بلورة المنهج البديل؟!..

لقد ظلمنا بجمودنا وتقليدنا لـ«تخلفنا الموروث» المنهج الإسلامى المتميز فى المعرفة، عندما وقفنا عند تراث عصر تراجعنا الحضارى.. ولم نول المنهج القرآنى فى المعرفة، الذى واجه به علماء عصر نهضتنا مذاهب المعرفة الحسية عند الأمم والنحل الأخرى.. لم نوليها ما هو أهل له من الاهتمام.

وظلمنا هذا المنهج الإسلامى، مرة أخرى بتقليدنا «للمنموذج الغربى» فى نظرية المعرفة.. فحلت الوضعية والمادية والتجريبية – بمعانيها الغربية – واحتلت المكان الأرفع فى علومنا الإنسانية والاجتماعية، وفى فلسفة علومنا الطبيعية.

ولقد كان هذا التقليد – لتخلفنا الموروث .. وللوفد غير العلمى ، وغير الملائم .. السبب الأول فى فقرنا الشديد فى الإبداع .

وما كان لأمة أن تبذل فى علوم حضارتها المتميزة . إلا إذا هى بلسورت منهاجها المتميز فى المعرفة .. وإذا كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة مدعوة إلى بلورة «بديلها الحضارى» ، كدليل لنهضتها المنشودة ، وذلك حتى لا تسقط فى هاوية «التبعية» و«الاستلاب الحضارى» .. أو تضل الطريق .. فإن المدخل إلى هذا الإنجاز هو «إسلامية المعرفة» حتى يأتى هذا «البديل إسلاميا» حقا .. فقضيتنا ، إذن قضية «إسلامية المعرفة» – هى جزء من «مشروع حضارى بديل» وليست مجرد قضية ثقافية خاصة بدوائر المثقفين والمفكرين ..

إنها قضية أمة تريد أن تنهض ، فى مواجهة تحديات شرسة .. وقضية دين ، أنعم الله علينا بأن هدانا إلى التدين به ..

وقضية حضارة صاغ أسلافنا العظام علومها ومعارفها بهذا المنهاج .. ولن يصلح البديل الحضارى الإسلامى المعاصر ، الذى نريد به مواجهة الخلل المعرفى الحديث ، إلا بما صلح به البديل الحضارى الإسلامى الأول ، الذى واجه به أسلافنا الخلل المعرفى القديم .

إنها قضية «قديمة – جديدة» .. تمثل واحدة من أبرز القسمات التى تميز ويتميز بها الإسلام .. الدين .. والحضارة .. على غيره من النحل والفلسفات والحضارات .

إن «إسلامية المعرفة» تعنى : «حضارة – مؤمنة» تقوم على «عقلانية .. متدينة» ، يبدعها «علماء – هم أكثر الناس خشية لله» ..

● وإذا كانت «الوضعية الغربية» ، التى عزلت «المعرفة» عن «الدين.. والوحى.. ونبأ السماء» .. بل جعلت «الدين: وضعاً بشرياً»!.. إذا كانت هذه «الوضعية» قد أثمرت – وأثمرها – نموذج فيلسوفها «أوجست كونت».. ذلك الذى قطع المحاضرات التى بدأ إلقاءها سنة ١٨٢٦م (الفلسفة الوضعية) – وهى التى كونت «مؤلفه الرئيسى» – قطعها بسبب إصابته بمرض عقلى!.. أعقبه محاولته الانتحار غرقاً فى نهر السين سنة ١٨٢٧م لفرط اليأس والقنوط..

والذى تعرف على «كارولين ماسان» – وهى بغى – فساعده أثناء احترافها للبغاء!.. ثم تزوجها!.. فلما انفصل عنها هام حبا بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة البوليس – هو «كلوتيلد دى فو»، فكان حبه لها – كما يقول مؤرخو فكره – السبب فى اتخاذ كتاباته طابعاً جديداً. فقال بخضوع العقل للقلب!.. ودعا إلى «تعاليم الدين الوضعى»^(١)..

إذا كان هذا هو حال «علم» و «علماء» المعرفة الحسية، و «الفصام النكد» بين «الأرض والسماء» .. بين «الكون والوحى» .. بين «الدنيا والآخرة» .. بين «المدنى والشرعى» ..

● فإن لإسلامية المعرفة شأنًا آخر، وثمرات مغايرة، ونماذج من العلماء مختلفين..

لقد كان عالمنا أبو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠هـ – ١٤٤هـ / ٦٩٩م – ٧٦١م) فارساً من فرسان الثورة فى سبيل الشورى والحرية والعدل.. وصرحاً من صروح العقلانية الإسلامية التى واجهت مقولات الشرك

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٦٦ ، ٢٦٧.

والزيف والإلحاد. وفي ذات الوقت كان الرجل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال!.. ويشير الناس إليه. إذا رأوه. قائلين : «هذا خير الناس» ..

إنه «الثائر» الذى يقول . « إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب»

والفيلسوف العقلانى ، الذى يدعو ربه فيقول : «اللهم اغننى بالافتقار إليك! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك! . . اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة!»..

وهو القائد المطاع فى قومه وأنصاره . . والذى يحج إلى بيت الله الحرام. سيرا على قدميه – من البصرة إلى مكة – أربعين مرة. فى أربعين عاما.. يمشى على قدميه، وخلفه بعيره، يحمل عليه الفقراء والضعفاء!^(١)..

هذه هى «بضاعتنا».. وتلك «بضاعة» الوضعيين – الماديين.

إنه نسق فكرى متكامل .. وبديل حضارى متميز لإعادة التوازن الذى أصابه الخلل بالانحراف «الحسى» و«المادى» ذلك الذى أقام «الوضعية.. المادية» العرجاء!..



(١) انظر دراستا عنه ، بكتانا (مسلمون ثوار) ص ١٦٠ – ١٧٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

المصادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة :

«صحيح البخارى» طبعة دار الشعب - القاهرة

«صحيح مسلم» طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

«سنن الترمذى» طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م

«سنن النسائى» طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م

«سنن أبى داود» طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م

«سنن ابن ماجه» طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

«سنن الدارمى» طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

«مسند الإمام أحمد» طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ

● الكتب المطبوعة :

آدم متز : (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ترجمة

د. محمد عبد الهادى أبوريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

ابن جلدل : (طبقات الأطباء والحكماء) تحقيق : فؤاد سيد، طبعة

القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ابن القيم : (إعلام الموقعين) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م، (الطرق

الحكمية فى السياسة الشرعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

ابن منظور : (لسان العرب) طبعة دار المعارف - القاهرة.

البلخي ، والقاضي عبد الجبار ، والحاكم الجشمي : (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق . فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

التهانوي : (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩٢م

الجرجاني (الشريف) : (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م

جيوم : (الفلسفة وعلم الكلام) ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ - ضمن كتاب (تراث الإسلام).

روبرت م . أغروس ، جورج ن . ستانسيو : (العلم في منظوره الجديد) ترجمة كمال خلايلي . طبعة الكويت سنة ١٩٨٩م.

حسين مؤنس (دكتور) : (أطلس تاريخ الإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م

روزنتال (م) ، يودين (ب) : (الموسوعة الفلسفية) ترجمة : سمير كرم ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

زكي نجيب محمود (دكتور) (إشراف) : (الموسوعة الفلسفية المختصرة) . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

سانتيلانا : (القانون والمجتمع) ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م ضمن كتاب (تراث الإسلام).

الطهطاوي (رفاعة رافع) : (الأعمال الكاملة) ج ٤ - دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م

عبد الوهاب الكيالي (دكتور) (إشراف) : (موسوعة السياسة) طبعة بيروت سنة ١٩٨٣م.

- مجمع اللغة العربية – القاهرة : (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م ، (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م
- محمد أمزيان : (منهج البحث الإجتماعى بين الوضعية والمعيارية) – طبعة المعهد العالى للفكر الإسلامى . واشنطن سنة ١٩٩٢م.
- محمد عمارة (دكتور) : (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م . (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م
- محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة
- مراد وهبة (دكتور) ، يوسف مراد ، يوسف شلالة : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م
- نلينو : (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ترجمة : د. عبدالرحمن بدوى طبعة القاهرة ضمن كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥
- هارى . و هازارد : (أطلس التاريخ الإسلامى) ترجمة إبراهيم زكى خورشيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م
- وينسنك (أ . ي) – وآخرين : (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف) طبعة ليدن ١٩٣٦م – ١٩٦٩م
- اليونسكو : (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م

فهرست

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
الفصل الأول شعار جديد لمضمون قديم	١٩
الفصل الثاني التعريف .. والضبط للمصطلحات	٢٣
الفصل الثالث أمثلة .. وتطبيقات	٢٩
الفصل الرابع النموذج القرآنى لإسلامية المعرفة	٥٣
الفصل الخامس وبعد الفتوحات الإسلامية	٨١
الفصل السادس والبديل للوضعية الغربية الحديثة	٩٣
الفصل السابع وقسمة فى مشروعنا الحضارى البديل	١٠٣
المصادر	١١٩

العدد القادم

العالم العربي

عند مفترق الطرق

دكتور محمد عثمان جلال

في المكتبات

المسلمون والنظام العالمي الجديد
وغير ذلك الأشغال

إشتراك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
 - الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكياً
 - الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكياً
- تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة
الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.
- أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

١٩٩٩/٧١٧٠	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5834-2	الترقيم الدولي

١/٩٩/٣٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هل هناك علاقة بين الإسلام
والمعارف الإنسانية؟
إن الكثيرين لا يجادلون في وجود
فلسفة مادية، وعلم اجتماعي
ماركسي، وسياسات ليبرالية- أي
وجود علاقات للمرجعيات
الوضعية بالمعارف الإنسانية-
لكنهم يرفضون هذه العلاقات إذا
كانت المرجعية هي الإسلام!!
وهناك من يخشى أن تعنى
إسلامية المعرفة وجود كيمياء
مسلمة وأخرى كافرة!
وهناك من يتوهم أن إسلامية
المعرفة هي تزيين العلوم الغربية
بآيات من القرآن الكريم! وللحوار
مع كل هؤلاء، وصولاً إلى كلمة
سواء، يصدر هذا الكتاب.



دارالمعارف

٤٠٧٠١٨/٠١



Bibliotheca Alexandrina



0517113